

الطرح السوسيولوجي الحديث لقراءة الرواية العربية عند محمد عزّام في "وعي العالم الروائي -دراسات في الرواية المغربية-".

Modern sociological approach to reading the arabic novel according to Muhammad Azzam in “ Awareness of the Novel World –Studies in literary in the moroccan novel-“

نريمان بوشنكير*

جامعة باجي مختار عنابة، كلية الآداب و اللغات، مخبر الأدب العام و المقارن، عنابة/الجزائر.

الإيميل : narimene.bouchenkir@univ-annaba.dz

تاريخ الارسال 2024/07/28 تاريخ القبول 2024/09/30 تاريخ النشر 2024/11/01

ملخص:

تسعى الدراسة التي بين أيدينا إلى تفصّي مدى قدرة المناهج النقدية الحديثة وبالأخصّ النقد السوسيولوجي الحديث في قراءة الرواية العربية، باعتبارها الجنس الأدبي القادر على حمل صراعات واقعه وطموحات أصحابه وأيديولوجيّتهم التي تبنّاها فكرهم وسيطرت على ميولاتهم السياسيّة والدينيّة والثّقافيّة. ذلك من خلال عرض أبرز الأسس التي يعتمد عليها النقد السوسيولوجي الحديث، متّخذين كتاب "وعي العالم الروائي -دراسات في الرواية المغربية-" ل محمد عزّام -نموذجاً-.

الكلمات المفتاحية: النقد-الدراسات السوسيولوجيّة-الرواية-الأيديولوجيا.

Abstract: The study at hand seeks to investigate the extent of the ability of modern critical approaches, especially modern sociological criticism, in reading the Arabic novel, as a literary genre capable of carrying the conflicts of its reality, the ambitions of its owners, and their ideology that their thought adopted and controlled their political, religious, and cultural inclinations. This is done by presenting the most prominent foundations adopted by modern sociological criticism, taking the book “Awareness of the Fictional World - Studies in the moroccan novel” by Muhammad Azzam - as a model.

Keywords: Criticism-Sociological Studies- The novel-Idiology.

1 مقدمة:

نالت المناهج النقدية الحديثة مرتبة الريادة في قراءة واقع النصوص الأدبية، فبالرغم من اختلاف إجراءاتها المعتمدة في القراءة والوصف والتحليل إلا أنها تبقى وسيلة نحو تقصي عالم البني النصية. بدءاً بالمناهج التي تعتمد الدراسة السياقية نذكر (التاريخية والاجتماعية والنفسية)؛ هذه المناهج ترى أن الدراسة النقدية وجب عليها أن تنطلق من الظروف المحيطة بالنص والتي أدت إلى إنتاجه وصولاً إلى النص، فالسياق هو المتحكم الوحيد لاستنطاق عالم النص. غير أن بعض النقاد يرون أن الإسراف في تفسير النصوص الأدبية المنطلق من السياق قد أفقد قيمة النص في حد ذاته الأمر الذي جعلهم يقدمون قراءات جديدة أساسها النص، مما أدى إلى بروز مناهج نقدية جديدة أطلق عليها بالمناهج النسقية؛ وهي المناهج الساعية نحو عزل السياق وجل الظروف خارج النصية في تأويل الأعمال الأدبية نذكر منها البنيوية.

سعى النقد الجديد¹ إلى فرض معايير نقدية جديدة في قراءة النصوص العربية كمقولة (موت المؤلف)، من أجل عزل النص أثناء قراءته عن جل الظروف خارج النص فالتص يُقرأ لذاته و من أجل ذاته. إن هذا الطرح سرعان ما عُدل لأن النص بقي مبهماً إذا عزلناه عن سياقه المادي الذي أنتجه؛ فللمؤلف وللتاريخ وللمجتمع الدور في تقديم تأويلات موضوعية للاتجاه الذي يسير عليه العمل الأدبي. ولما كان الأمر ذلك ظهرت مناهج نقدية جديدة دعت إلى ضرورة انفتاح القراءة النقدية على الواقع المادي المسهم في ولادة النص الأدبي وبالأخص المناهج السوسيولوجية التي مثلتها البنيوية التكوينية الساعية إلى فتح بنية العمل الأدبي على الفرد والتاريخ. وتبعها فيما بعد التداولية وغيرها. لذلك سنحاول التركيز على البنيوية التكوينية كإجراء نقدي مصنف مع المناهج السوسيولوجية الحديثة، فما هو الأساس الرؤيوي الذي يستند إليه التوجه السوسيولوجي الحديث؟ ما الطريقة التي كيف بها محمد عزّام قراءته النقدية لواقع الروايات المغربية؟

2- الخلفيات الأولية التي شكّلت النقد السوسيولوجي الحديث:

شكّلت المناهج السوسيولوجية الحديثة عتبة جديدة في عالم المناهج النقدية الحديثة الداعية إلى استحضار رؤى خارج النص من أجل تقديم تأويلات بغية فكّ ما التبس في النص الأدبي، لتعني بالتأويل الفني المستقل عن جميع البنى الأدبية الأخرى؛ التي تتمحور في شكل بنى مكثفة بذاتها وما يؤكد على إمكانية الأخذ بالسياق الاجتماعي الذي يجسّد بنية سوسيولوجية مماثلة لبنيتها الفنية. ممّا لا شكّ فيه وجود مماثلة دائمة بين اللحظة الإبداعية واللحظة التاريخية والاجتماعية المفردة لخيال المبدع، وعليه كان لا بدّ من التأكيد على ازدواجية التحليلين السياقي والفكري والاجتماعي، فتكون المناهج السوسيولوجية محققة للتوازن بينهما. ليرتبط الفن الأدبي عضواً بمحيطه المادي؛ هذا المحيط ينمو داخل الفن ويصوّر جميع طبقاته وشرائحه وفئاته، خصوصاً أن فكر المبدع يخضع لجماعته

المنتمي إليها فيعتبر تلك الصياغة الشكلية للأدب مطابقة للوعي الجماعي المنتشر لذلك لا يستقلّ الكاتب بوعيه وبفنه عن جماعته.

ركّزت هذه المناهج القائمة على استحضار الواقع في تقديم تفسيرات لعالم البنى الأدبية تحليلاتها على ثلاث بؤر أساسية:

-المؤلف

-النصّ

-السياق

يترجم المؤلف فكره الأيديولوجي ضمن عمل أدبي له علاقة بأحوال مجتمعه من بعيد أو من قريب؛ إذ لا يمكننا الجزم بأيديولوجية النصّ فحسب بل يعدّ ذلك إنتاجا لذات مبدعة وظروف اجتماعية أخرى، ليكون النقد السوسيولوجي الحديث ردّا على من يرى النصّ بنية منغلقة على ذاتها، لا تملك علاقة بمحيطها الاجتماعي، بل لا بدّ من قراءته من زاوية علاقته برؤى فئات أصحابها؛ فالنصّ لا ينغلق على ذاته إنّما يماثل بيئته ويحمل هموم طبقته التي ولدتها، إنّ الجمالية الأدبية لا تتحقّق إلّا بربط الأدب بمحيطه الاجتماعي الذي قد يتعلّق بميدان السياسة، أو الاقتصاد، أو الدين، أو الثقافة وغيرها.

ينظر النقد السوسيولوجي الحديث للأدب كبنية تتم أسرها لظروفها الاجتماعية، فهي «النظام أو الكلّ المنظّم الشامل لمجموعة من العلاقات بين عناصره؛ هذه العناصر التي تحدّد طبقاً لعلاقاتها داخل الكلّ الشامل»²، لتكون مرتبطة بحياة الإنسان وفكره، ففهمها متّصل بنا والذي قد يماثل أبعادا أخرى لها علاقة بالمجتمع، أي أنّها ذات معنى شمولي. من هذا المنظور يتبيّن أنّ النصّ الأدبي عبارة عن بنية تتشكّل من عناصر كلّ خاضعة لقوانين مجتمعتها؛ إنّها "تحمل، للأسف انطبعا بالسكون، ولهذا فهي غير صحيحة تماما، ويجب ألاّ نتكلّم عن البنى لأنّها لا توجد في الحياة الاجتماعية الواقعية إلّا نادرا ولفترة وجيزة، وإنّما عن عمليّات تشكّل البنى"³؛ أي أنّ هذه البنى تحيا حياة اجتماعية متّصلة بواقعها وإن فصلناها قد تحمل معنى السكون والاستقلال. ليتبيّن أنّ النقد السوسيولوجي «يبقي على البنية وإن أقام علاقة التناظر بينها وبين البنية الأوسع، أو بين بنية العمل الأدبي من جهة والبنية الذهنية للفئة الاجتماعية التي يعيد الأديب تركيبها في النصّ»⁴، لم يعد العمل الأدبي حبيسا لعالمه الداخلي بقدر ما فتح المجال لعناصره على عوالم خارجية مسهمة في خلق أدبية للأدب فالزّمرة الاجتماعية والأيديولوجية منحتا للعمل الأدبي نفسا جديدا ورؤية مختلفة لأنّ النقد السوسيولوجي من منظور البنيوية التكوينية -باعتبارها رائدة المناهج السوسيولوجية الحديثة- يربط بنية العمل الأدبي بمحيطها ولا يجعلها أسيرة أنساقها النصّية فحسب بقدر ما تكون مجموع العلاقات القائمة فيما بينها التي يحكمها مبدأ التكوين أساسه الجمع بين عالمين: الأدب والمجتمع ممّا دعا إليه جان بياجيه من قبل.

يذهب منظرو النقد السوسيولوجي الحديث إلى أنّ جورج لوكاتش **George Lukac** المؤسس الحقيقي له وأنّ فكره يتوزّع على ثلاثة روافد: الأول: المادية التاريخية. الثاني: علماء الاجتماع الألمان، ومنهم ماكس فيبر **Max Weber** [1864م-1947م]، الذين قاموا بدراسات في الإبداع والمجتمع والأيدولوجيا. الثالث: المتمثل في أعمال مدرسة فرانكفورت السوسيولوجية، الخاصة بالنقد الاجتماعي والتاريخي والجمالي، ومنها على الخصوص أعمال أدورنو **W. Adorno**، و هوركايمر **M. Horkeimer**.⁵ تستند الدراسة التحليلية لجورج لوكاتش على مبدئين أساسيين: أولهما: الكشف عن البنيات الدلالية للأعمال الأدبية، وثانيهما: البحث عن رؤية شمولية للفرد التي تتعلق بضرورة المجتمع. وعليه "إنّ مقدرة الشخصيات الأدبية على التعبير عن نظرتها إلى العالم فكراً تؤلف جزءاً ضرورياً وهاماً من الترجمة الفنية للواقع"⁶؛ تبين أنّ عملية التفسير لا تستند فقط على الدراسة الحرفية للبنية النصية من نسيج لغوي متمحور على جماليات لغوية وتعايير فنية، إنّما الجمالية الأدبية من منظور جورج لوكاتش تتأسس في نسجها مع العالم الخارجي الذي يعتبر أرقى شكل للوعي على حدّ تعبيره.⁷

إنّ التفسير السوسيولوجي لا يشكل إلا خطوة أولى ضرورية. والمهم العثور على المسار الذي عبّر فيه الواقع التاريخي والاجتماعي عن نفسه بواسطة الحساسية الفردية للمبدع في النتاج الأدبي المدروس وعليه تبين أنّ البنيوية التكوينية، ككلّ منهج علمي، ليست، في تصوّر لوسيان غولدمان، مفتاحاً لكلّ شيء، بل منهجاً للعمل، منهجاً يتطلب أبحاثاً تجريبية طويلة⁸، حتّى يرسم خطى جديدة يسير عليها بطريقة إيجابية تصرّ على ضرورة وضع من زاوية أكثر وعياً في تحسين الطرح الغائي الذي جاءت به البنيوية الشكلية⁹.

كان فريدريك جيمسون **Frederic Jameson** [1934م] قد سبق لوسيان غولدمان في اهتمامه بالبنية النصية في علاقتها بالتاريخ من خلال كتابه «سجن اللغة: تقييم نقدي للبنيوية والشكلية الروسية»¹⁰ **"The Account of Structuralism and Russian Prison house of language : A Critical Formalism"**. الذي يُعدّ استجابة أمريكية يسارية إلى شكلية البنيوية اللغوية والذي أيضاً طرح فيه قابلية انفتاح البنية على التاريخ¹¹، و«مضى بعيداً في تحديدها بوصفها وظيفة اجتماعية لحلّ إشكالٍ بعينه. وهو التحديد الذي انتهى به إلى تناول البنية في أفعال تولّدها المتعاقبة، ابتداءً من تولّد العمل الأدبي بنية متلاحمة عن رؤية بعينها للعالم...»¹²

صنّفت هذه الأطروحات كدعائم أساسية لإعادة قيام علم سوسيولوجيا الأدب قصد إيجاد الصلة الحقيقية بين الأدب والمجتمع، هذا ما جعلتنا نتميّز بين ثلاثة أنواع من المناهج:

- التجريبية،

- الجدلية،

- البنيوية التكوينية.

فالأول يعنى بالأديب والظروف الخاصة والعامة به لأنّ هذا يشكّل هويته الاجتماعية وليس التّفسّية؛ أي أنّ مجال دراسته مركّز على الظروف الاجتماعيّة للأديب منذ مدام دوستايل بعدها ربط الأدب بالحياة الاجتماعيّة للأديب ثمّ المجتمع.

أمّا الثّاني فيهتمّ بربط مضمون العمل الأدبي بشقّ أشكال الوعي الأيديولوجي للمجتمع وطبقته، على أساس أنّ هناك علاقة انعكاس بين الأدب والمجتمع¹³.

أمّا الثّالث فيعدّ امتداداً للمنهج السوسيولوجي الجدليّ الذي يعزم على إدراج الأدب والمجتمع ضمن عالم أوسع من عالمها الفنيّ تحكمها رؤية شموليّة، بحيث كان للفكر المادّي الماركسيّ الفضل في تطوّر مناهج النّقد السوسيولوجي.

3- النّقد السوسيولوجي عند محمد عزّام:

عرف التّحليل السوسيولوجي الحديث في الوطن العربي تراكماً نوعياً بسبب احتكاك النّقاد العرب وإطلاعهم على جلّ الحركات النّقدية الأوروبية، لينتجوا ثروة يعبر عنها في دراستهم التي سادت المعطى السوسيونيّ بأبعاده الحديثة والمعاصرة، فكانت الخطابات الروائية من أكثرها إبداعاً وتسهلاً لعملية النّقد البنيويّ التكوينيّ الذي اختار منحى البحث في السوسيولوجيّة الجدليّة التي اشتهر بها كلّ من جورج لوكاتش، ولوسيان غولدمان، وأدورنو، وميشال زيرافا، وبيير زهما، وجاك لينهارد وغيرهم، حيث تؤمن بوجود علاقة بين الأدب والواقع، فالأدب لا يصوّر المجتمع أو يعكسه بقدر ما يمثله ويحيل إليه في شكل بنى فكرية، أو أيديولوجية، أو اقتصادية، أو ثقافية تحتّم بتكوين الوعي الجماعي للأفراد والمؤسسات.

نروم من خلال هذا أن نمهد لمجال عملنا المتمثّل في مدى قدرة النّقد السوسيولوجي على مساءلة الخطاب الروائي العربي، إذ لم يكن النّاقد العربيّ في عزلة إزاء هذا المشهد؛ بل سعى نحو مواكبة جلّ التغيّرات والتطوّرات الطّائرة على السّاحة النّقدية ومعاينة ما قدّمه النّقد الغربي. فاهتمام النّقاد العرب بالجانب السوسيولوجي للرواية العربيّة الحديثة فتح لهم المجال للعمل بهذا الإبداع الروائي في شقّ تشكّلاته وتنوّعاته. فكان محمد عزّام في كتابه النّقدي "وعي العالم الروائي - دراسات في الرواية المغربية" -¹⁴ قد استنبط جملة الرؤى الاجتماعيّة التي محوّرت الروايات المغربيّة وجعلتها خاضعة لوعيّ معيّن، فنّتج عن ذلك (04) أربعة أنواع من الوعي رئيسة اندرجت تحتها أنواع ثانوية أخرى من الوعي بنى محمد عزّام على أساسها كتابه النّقدي بشاكلة البحث عن الرؤية التّجريبية فيها.

3-1- الرؤية السوسيولوجية في دراسات محمد عزّام من خلال كتابه "وعي العالم الروائي - دراسات في

الرواية-":

بدأ محمد عزّام بحثه عن مراحل تشكّل الرواية المغربيّة بإفراد مدخل خاصّ بها يمكن أن ندرجه ضمن التّاريخ لعالم الرواية المغربيّة، فركّز على مُعطى تأسيس الأدب العربي بشكل عام وعلى الرواية المغربيّة بشكل خاص معتبراً أنّها « ليست عملاً عكسياً فحسب، وليست (مرآة) تسير في الشّوارع فقط، وإنّما هي أيضاً (مصباح) يُنير

الحاضر، من أجل المستقبل، وبهذا فهي تتجاوز كونها (وعياً واقعياً) لتُصبح (وعياً ممكناً)¹⁵، لم تعد الرواية مجرد آلة تصوير فوتوغرافي للواقع بقدر ما تعدّ أداة لاستشراف المستقبل ومعالجته، فهي وعي ممكن يتجاوز الواقع ليفتح عالماً خال من همومه يعمل على معالجة عتبات بيئته مستكشفاً عن ملامح جديدة لمستقبل جديد له عالمة الذي ينمو فيه ويجدد طاقته المكسورة بفعل تجاوزات واقعه. أما في تأريخ محمد عزّام عن طريقة تشكّل الرواية المغربية؛ يقول إن: « السّتينات المولد الحقيقي للرواية المغربية، ففيها تمّ تعميق الوعي الاجتماعي والفني. وتمّ الكشف عن الصّراعات الجارية على أرض الواقع، بعد أن تمّ تجاوز كون الرواية (مرآة تجوب الشّوارع)، لتصبح أداة توعية وتثوير، ومصبّحاً ينير الطريق من أجل استشراف آفاق المستقبل...»¹⁶، فعلى الرّغم من وجود رواية مغربية قبل مرحلة السّتينات إلاّ أنّه يرى البداية الحقيقيّة للرواية المغربية كانت في تلك المرحلة كونها ركّزت على الواقع الاجتماعي.

تميل مبادئ محمد عزّام في تشكيل عالم البنى الروائية إلى ضرورة استحضار الواقع الاجتماعي ضمن عالم الرواية. وعليه يمكن الاعتبار أنّ هذا الاتفاق النقدي الذي خلص إليه محمد عزّام كملح يبرز تأثره بأصحاب المذهب السّوسيولوجي في النّقد العربي، خاصّة ما أشار إليه عن وظيفة الأديب كونه ضمير الأمة... فهو إنسان يعيش في النّهاية ضمن منظومة اجتماعيّة خاضعة لقوانين سلطتها؛ بالتّالي فمن البديهي أن يصوّر سلطة واقعه المفروض عليه بإعادة بناء حياته وفق قوانينها. فيؤمن محمد عزّام بمقولة "موت المؤلّف" ويقرّ بدوره على تولّي هوم زمرة الاجتماعية المنتمي إليها سواء عبر قناة حب الوطن أو النّزعة السياسيّة أو الاتّجاهات الدّينيّة أو العلميّة منها. شرّح محمد عزّام النّصّ الروائي بواسطة أربعة أنواع من الوعي هي: -الوعي الدّاتي، -الوعي المستعاد، -الوعي الواقع، -الوعي الممكن.

3-1-1- نقد الوعي الدّاتي:

تجلى الوعي الدّاتي بأنواعه المختلفة فمرة عن الذات لوحدها وأخرى عن الوطن وأخرى عن المجتمع وأخرى عن الحضارة للرواية المغربية على مرّ الأزمنة، إذ استنطق محمد عزّام مضمونها من عالمها المادّي المحيط بها. الأمر الذي حوّل المضامين إلى شبكة من الرّؤى كفلها محمد عزّام وجسّدها داخل عمله الفني. كما تجدر الإشارة أيضاً إلى رغبة محمد عزّام الجاححة في تمثّل الواقع الذي ينتمي إليه الإنسان وفق أيديولوجيّة سادت فكره وعصره وجعلته أسيراً لها يدافع عنها ويجسّدها في صور أبطال إشكاليّين مضطرين خاضعين لسياسة معيّنة لا يمكنهم الانفصال عنها. ففي قراءته لرواية (اللّهات الجريح) لمحمد الصّباغ، التي تدور أحداثها حول علاقة رومانسيّة بين بطل القصة ومفكّرة لبنانيّة؛ غير أنّ أحداثها تنتهي بالانفصال باعتبار القضايا التي تمّ هذه المرحلة، مثل القضية المغربية، والصّراع بين القوى الوطنية والاحتلاليّة، وما كان لذلك من أصداء [في العالم العربي، كما تتعرّض للهِجرة اللّبنانيّة إلى أمريكا، وما لها من سلبات...] على البلاد، فتخوض في تحليل أسبابها السياسيّة والوراثيّة¹⁷، ركّز محمد عزّام على استنباط البنى الاجتماعية التي مكّنته من الإلمام بالرّؤية المتحكّمة في العمل القصصيّ. فما يمكن ملاحظته أنّ الرواية غلب الطّابع التّشأوّمّي عليها فحياته تعرّضت لنوائب الدّهر، الأمر الذي جعله أسيراً لها، فلا يستطيع

التخلّص منها، بقدر ما أصبحت حاجسه الذي يتحكّم فيه. ليدرك المتتبع أنّ في اختيار محمد عزّام لهذه القصة يكون قد حصر الرؤية المتحكّمة فيها إلى زاوية سوسيولوجية. فبعودته للصراع بين القوى العربية أمكنه أن يفرز بعداً اجتماعياً ذاتياً للقصة.

3-1-2- نقد الوعي المستعاد:

إنّ في استحضار التاريخ الإنساني والاجتماعي والثقافي والحضاري والديني داخل العمل الروائي يكون الروائي قد تميّز بالوعي المستعاد الذي لم ينسه، كما في استحضار الوطن وحبّ الوطنيّة وتراب الوطن يكون الروائي مرّة أخرى قد استوعى ذاته ومجتمعه في آنٍ واحد. لذلك أوّل محمد عزّام اعتباراً للوعي المستعاد؛ بحيث يعتبر الرواية «التاريخية والوطنية هما الوعي المستعاد، كُتبت الأولى في عهد الحماية، والثانية في عهد الاستقلال، واعتبرنا تأسيساً للرواية المغربية الحديثة. والواقع أنّ سمة الوعي المستعاد هي الرّابط بينهما، فكلاهما تتحدّث عن فترة ماضية زاهية...»¹⁸، كانت رغبة محمد عزّام في محاولة لإيجاد منفذ عن العالم الاجتماعي داخل الرواية المغربية؛ كأنّه أراد القول إنّ عالم بناء الرواية المغربية عالم شديد الارتباط بمجتمعه الذي تعيش معه. فكان متشدّداً لهذا الطّرح؛ ومن البديهي أن لا يكون لوعي الفاعل المتجاوز لفرديته وجود فعلي خاصّ إلا في مجمل الوعي الفردي الملتزم بمجموعة العلاقات الاجتماعية المنظمة¹⁹. وهو زعم أكّده المؤسسة السوسيولوجية المؤمنة بتواجد الفرد ضمن منظومة جماعية اجتماعية تحكمها قوانين عامّة مبرجة للوعي الفردي باختلاف أنواعه. ليتشكّل الوعي المستعاد بعد تناول الرواية المغربية تاريخ بلادهم ومجدها القديم قبل أن تحتلّ من طرف قوّات فرنسا. فيلجأ الأديب نحو استحضار لياليها وعراقتها وقوّة المغرب ومجدها وعطاءها، فيصلون إلى درجة الافتخار بأصلهم وعاداتهم وتقاليدهم، فها هم يوظّفون طارق بن زياد كرمز من رموز وقّيات بلاد المغرب. إذ في رواية «الملكة خنثة لآمنة اللّوة»²⁰ حاول محمد عزّام استنباط الرؤية التاريخية منها معتبراً إيّاها مجرد «عمل تأصيلي في وجه التّغريب الذي تفرضه فرنسا على المغرب، فليس أمام الأدباء إلاّ العودة إلى الماضي لتشخيصه، كمثّل أعلى، وكنوع من المقاومة، وكدليل على أنّ العدو الخارجي لا بدّ أن ينخلد حتى ولو كانت وحدة الصّف مشتّتة»²¹ أي تجسيد اللّحمة والتكثّل الوطني بين أفرادها، وهنا ما يبرز إبراز مكانة التاريخ الذي لعب دوراً مهماً في تنامي الوحدة الوطنية المغربية. وعليه كان محمد عزّام محقّاً في أهميّة توظيف ركن التاريخ ضمن عالم الرواية، حيث عمل على جمع شمل أمة بأكملها لتقف في وجه المحتلّ الذي يريد تفريق تضامنها. ولو اعتمد محمد عزّام في دراسته للرواية على الدّراسة الدّاخلية لها وعدم الانفتاح أو الرّجوع بالزّمن إلى وراء لكان العمل الأدبي مجرد علبة مقيدة خالية من المضامين الجوهرية ولأنغلق الفرد على نفسه ووعيه التاريخي، إذ ذاك يصبح العمل الروائي آلة جامدة بعيدة عن معالمها. وعليه يبدو ما يلي:

1- إنّ الرواية المغربية صورة طبق الأصل لواقعها الماضي والحاضر.

2- فعالية الأديب المغربي في توظيف رؤيته التي سيطرت عليه.

- 3- يبدو أنّ الرؤية الغالبة على مرجعية العمل الروائي ما هي إلا رؤية شاملة وجامعة لرؤية فئتها وطبقها المنتمية إليها.
- 4- رضوخ الأديب المغربي وراء ما يجري حوله في فترة من الفترات التي تتطلب الانصياع خلف دكتاتورية الفكر السائد في تلك المرحلة،
- 5- ميل محمد عزّام السوسيولوجي في استخلاص محتوى الأعمال الروائية بطريقة قائمة على الانفتاح أكثر من الانغلاق الداخلي للبنية الروائية.
- 6- محاولات محمد عزّام استنطاق الأعمال الروائية المغربية قصد تركيب عالم جديد مستوحى من رؤاه المشكّلة منه بمنظور ذاتية الفرد.

3-2-3- نقد الوعي الواقع:

لاحظنا في مقام سابق اهتمام محمد عزّام بالبحث عن الوعي الذاتي للوطن وللتاريخ ليبحر بعدها في البحث عن وعيٍ لواقع عيّنه ضمن عالم البنى الروائية، ويذهب في تنظيره إلى أنّه «أشمل وأوسع رقعة لأنّه ينبذ الذاتية والتاريخية ليستلهم الواقع في معاناته المرة»²²، يظهر في واقعية الرواية المغربية التناقض المتضارب الذي وقع فيه محمد عزّام؛ فتارة يهتمّ بالذات والتاريخ في العمل الروائي محاولاً كشف عالم الرواية من منظورها وتارة أخرى ينفي عنصري الذات والتاريخ. خاصّة أنّ المعاناة الحقيقية للواقع لا تعيشها إلا الذات الإنسانية على أرضها لتصبح فيما بعد عنصراً تاريخياً مسيطراً على رؤية الأديب ضمن هيكلية بنائه الروائي. والبنوية التكوينية من منظور الأبحاث السوسيولوجية تنطلق من فرضية التماثل بين عالمي (الفنّ والواقع) "فكلّ سوسيولوجية للفكر تقبل بوجود تأثير للحياة الاجتماعية على الإبداع الأدبي... وتعتبر ذلك مسلمة أساسية مع إلحاحها بصفة خاصّة على أهمية العوامل الاقتصادية والعلاقات بين الطبقات الاجتماعية"²³، ففي -رواية (المغتربون) لمحمد الاحساني²⁴ اعتبرها محمد عزّام «من أوائل الأعمال الروائية التي ترصد الوعي الاجتماعي»²⁵ إذ درسها سوسيولوجياً فعرض أحداث الرواية وتفسير أدوار الشخصيات من خلال واقع المجتمع المغربي الذي يعيش حياة فقر وبؤس وجهل. كما أنّها «تؤكد أنّ كثيراً من مطامح الشباب يؤيدها الفقر والحاجة، وأنّ الآباء الفقراء يعانون الأمرين في تعليم أبنائهم، تطلّعاً منهم إلى مستقبل أفضل يؤمّنه العلم والوظيفة، فيتحمّلون عذاب الصبر وذلل الفقر. ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، وعلى الخصوص في مجتمع طبقي تثري فيه البورجوازية في صفوفاتها المشبوهة، واحتكاراتها اللاإنسانية. ويصبح العلم بالكبير قيمة، ما دام يوظّف في النهاية لحسابها، وما دام رجال الأعمال الأميون والسّماسة وتجار البناء، يستخدمون المهندسين والجامعيين ويشرون على حسابهم»²⁶؛ يبدو أنّ الرؤية التي تعكسها رواية 'المغتربون' ما هي إلا حقيقة عن وضعيّة المغاربة التي آلت إلى تسلّط الأميين على الحكم، حتّى تواصلوا إلى شراء المثقفين ووضعهم تحت وطأتهم المحكوم عليها بالزوال.

4-1-4- نقد الوعي الإشكالي:

استوحى محمد عزّام التناقض الاجتماعي من فكر لوسيان غولدمان الذي يعتبر أحد أعمدة التقدير السوسيولوجي الحديث؛ يقول: «تملك الطبقة الاجتماعية، حسب غولدمان، وغيها الواقعي المنطلق من ممارستها للحياة اليومية ممارسة متميزة حتى على صعيد الأحاسيس. ولكن هذا الوعي ليس صافياً بالقدر الذي يمكن القول فيه بأنه وعي متميز تماماً، إذ تنحصر فيه ممارسات قد لا تمت إلى هذه الطبقة بصلة، ومع ذلك يظل هذا الوعي متميزاً بشكل عام. ويحتل المبدع في طبقته مكانة تحوّله أن يشكّل وعيها الممكن كأقصى ما يمكن أن يصل إليه هذا الوعي في تجسيد همومها وتطلّعاتها»²⁷؛ حاول محمد عزّام بناء مفهومه للوعي الإشكالي باستحضار رأي لوسيان غولدمان في تشكيل وعي الطبقة الاجتماعية وتناقضها واختلافها المستمر، حيث أرجعه إلى ممارسات وتجارب الحياة اليومية ممّا يجعلها قاعدة لرؤى الإنسان عن العالم الذي يعيش فيه. وعليه فإنّ امتلاك محمد عزّام لهذا المبدأ التقدي في تبرير حجج تشكّل البنى الاجتماعية مردّه الفكر الغولدماني، الذي يعتمد على رؤى الطبقات الاجتماعية أقرّ بضرورة إسهامها في تشكّل وعي وتطلّعات وطموحات طبقة اجتماعية معيّنة. كما يستنبط هذا الوعي الإشكالي من خلال ما قدّمه عبد الله العروي في روايته «الغربة»؛ التي ألبس بطلها إدريس مجموعة من التناقضات النفسية والاجتماعية بين ما تتلمذ عليه من ثقافة مغربية عربية وما اكتسبها من ثقافة غربية أجنبية، وشتان بين الثقافتين.

حاول محمد عزّام في هذه الدراسة توليد التناقض الذي اتخذ مجرى الرمزية أداة في استخراج الإضطراب الكلي لحياة بطل الرواية؛ فيعلّل سبب اختياره بأنه «خير مثال على إيجابية هذا الوعي الإشكالي وسلبياته»²⁸؛ وقد وضع زمرة الدلالات لأعماله الروائية المؤكدة على التداخل الحاصل للمعاناة المترتبة عن الوعي الإشكالي؛ فمثلاً حينما عبّر على قضية التعرّي من طرف عشيقته مارية وظّفه بطريقة محتشمة، وفي تفسيره لهذا السلوك اعتبره «جراً الغرب الحرّ على تدمير القيم التقليدية في مجتمع أبوي ما يزال مكبّلاً بالكثير من قيود العادات والتقاليد... هذا هو خاطر إدريس في تلك اللحظة. وهو يتفق فيه مع قيم مجتمعه التقليدية التي عاد إليها. أين قيم المجتمع الغربي الحديث التي جاء بها؟ لا نجد لها أثراً. لم تظهر، إلّا إذا اعتبرنا الموقف الإشكالي الذي يقول نعم ولا في الوقت نفسه»²⁹. أرجع محمد عزّام هذا الموقف للثقافة الرائجة في المجتمع الذي تنتمي إليه الفتاة مارية، الأمر الذي جعلها خاضعة لوعي مجتمعه الحرّ. وعليه فإرجاع محمد عزّام تصرفات البطلة إلى واقع مجتمعه يجعلنا نقف على مدى سيروية اتجاهاه التقدي السوسيولوجي في تشكيل حياة الإنسان من جهة، وما يزيد من هذا الميل التقدي طرحه تساؤلاً حول بطل الرواية يقول:

«- ما هو فكر إدريس؟

- وما هي أهدافه؟

- لم نعرف عنها شيئاً. وعلى القارئ أن يستنبطها من دلالات الأحداث الروائية...»³⁰. من جهة أخرى. نبرّر طرح محمد عزّام هذه التساؤلات برغبته في تقديم مبررات للحركات المتبعة من طرف إدريس.

أصرّ محمد عزّام على الانتقال إلى فهم تناقضات شخصيّة البطل إدريس؛ فحاول البحث عن بنية أعمّ وأشمل تفسّر الخلفيات الفكرية والثقافية لاضطرابات البطل؛ خصوصا أنّ «القارئ غير المطلع على خلفيات النصّ والواقع الاجتماعي والتاريخي لن يفيد كثيرا من قراءته باعتباره لن يستطيع استنباط المعاني الكامنة خلف الدلالات. والأحداث ليست كثيرة...»³¹. تعتبر هذه الحجّة دليلا على تطلّع محمد عزّام على البنية الواقعية والاجتماعية للعمل الروائي وعدم انغلاقها الكلي داخل جسدتها اللغوي.

5 خاتمة:

لقد وفّرت الأبحاث السوسولوجية تقنيات جديدة في القراءة والوصف والتحليل؛ فهي تنطلق من النصّ إلى البحث عن بنية دالة تفسّرها رؤية لعالمها الخارجي تجعلها تحكم النصّ الأدبي. حيث أكّد محمد عزّام في قراءة عالم الرواية ضرورة انفتاح بنيتها على محيطها الذي أسهم في إنتاجها لا على الانغلاق؛ خاصة أنّ عالم الرواية يتميز بتوسّع عناصره المشكّلة له وعدم تقيده بحدود الوزن والقافية والروي كما معلوم لدى الخطاب الشعري، وعليه يجد الزاوي والناقد معا المجال متّسعا لبناء عالم الرواية.

يبدو أنّ دراسة محمد عزّام لوعي واقع الروايات حاولت الوقوف على آليات وتقنيات الدّراسة التحليلية للبنىوية التكوينية. كما جمّع إلى الدّراسة الاجتماعية في تبيان البنية الفوقية (الوعي) والتّحتية (الطّبيعة)، ولكي "نقوم بتحديد المحتوى بشكل مفصّل وجب التّفريق بين الواقع الحقيقي والواقع الذي يحقّق مستوى جمالي معيّن"³². في حين يعتبر ما قام به محمد عزّام سوى انعكاسا للواقع وشتان بين الانعكاس الواقعي، والتّمائل الذي دعا إليه لوسيان غولدمان ليمائل بين الطّبيعة الإنسانية، والطّبيعة الحيّة، وليس مجرد انعكاس بسيط محقّق لجمالية أدبية معيّنة. كما -أيضا- صنّف الروايات وترجمها إلى مؤشّرات دينية، واجتماعية، وسياسية، وأيديولوجية. وعليه تبقى الأبحاث السوسولوجية الحديثة طريقة للولوج إلى عالم النصوص الأدبية إذ ترى جماليّة الأعمال الأدبية يكون بفتح عالم النصّ الأدبي على ما ساعد المبدع في تشكّل أفكاره؛ والحقيقة أنّ النصّ كيان مبهم، لا يمكنه عزله عن شتّى العوامل المسهّمة في إنتاجه؛ لأنّه يخضع للعوامل النفسية والظّروف الاجتماعية والميولات السياسية التي سيطرت على فكر المبدع وجعلته أسيرا لها، لذلك ندعو إلى فتح المجال أمام الدّراسات السوسولوجية الحديثة أن ترسم خطاطة موحّدة تجمع فيها الخطّة التجريبية للناقد من أجل تتبّع خطوات البحث السوسولوجي الحديث من جهة و حتّى يتمكّن الباحث من تحديد مسار القراءة السوسولوجية عند الناقد الأوّل.

6 الهوامش:

¹ نقصد بالنقد الجديد الذي ظهر بعد المناهج الكلاسيكية القديمة و هو النقد البنوي.

² صلاح فضل: نظرية البنائية في النقد الأدبي، منشورات دار الآفاق الجديدة، د.ط، بيروت، 1985م، ص 192.

³ Lucien Goldmann : in collectif : le structuralisme génétique édition gonthier collection médiation n 159 paris 1977 .p. 67 نقلا عن محمد الأمين بحري: البنىوية التكوينية من الأصول الفلسفية إلى الفصول المنهجية دراسة 1977. في نقد النّقد. منشورات ضفاف، ط1، لبنان، 2015، ص142.

- ⁴ حميد حميداني : التقّد الروائي والإيديولوجيا. من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا التحليل الروائي، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، 1990م، ص 45.
- ⁵ ينظر: عمر عيلان: في مناهج تحليل الخطاب السردي. دار الكتاب الحديث. د.ط، القاهرة، 2011م. ص ص 176 177.
- ⁶ جورج لوكاتش دراسات في الواقعية: ترجمة: نايف بلوز. المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، ط3، بيروت، 1985م، ص 25.
- ⁷ ينظر المرجع نفسه. الصفحة نفسها.
- ⁸ ينظر: بون باسكادي: البنيوية التكوينية و لوسيان غولدمان. ترجمة: محمد سبيلا. مؤسسة الأبحاث العربية، د.ط، بيروت، 1986، ص 42.
- ⁹ ينظر: تيري إنجلتون: الماركسية و النقد الأدبي. ترجمة: جابر عصفور. دار قرطبة للطباعة و النشر، ط2، الدار البيضاء، 1986م، ص 20 ص ص 36 37.
- ¹⁰ ينظر فريدريك جيمسون: سجن اللغة: تقييم نقدي للبنيوية والشكلية الروسية. مطبعة جامعة برنستون الأمريكية. 1972م.
- ¹¹ ينظر جابر عصفور: نظريات معاصرة. الأعمال الفكرية (الهيئة المصرية العامة للكتاب)، د.ط، مصر، 1998، ص ص 96 97 98.
- ¹² المرجع نفسه. ص 98.
- ¹³ ينظر أنور عبد الحميد الموسى: علم الاجتماع الأدبي منهج سوسيولوجي في الطباعة و النشر: دار النهضة العربية للطباعة و النشر، ط1، بيروت، 2011م، مجلد1، ص 273.
- ¹⁴ وعي العالم الروائي إنتاج جديد شكّله محمد عزّام وفق الخطة الآتية: مدخل نشوء الرواية المغربية وتطوّرها وفيه حديث عن مراحل تشكّل الرواية المغربية: الفصل الأول: الوعي الدّاتي: تحدّث فيه عن: التّمودج الدّاتي ، والتّمودج الوطني، والتّمودج الاجتماعي، و التّمودج الحضاري. الفصل الثّاني: الوعي المستعاد: ركّز فيه على وعين هما: الوعي التّاريخي ، والوعي الوطني. الفصل الثّالث: الوعي الواقع: تناول فيه كلاً من: الوعي الاجتماعي، والوعي القومي، والوعي الشّقي، والوعي المنهار. الفصل الرابع: الوعي الممكن: اهتمم فيه ب: الوعي الإشكالي، و الوعي المواجه. الفصل الخامس: الاتّجاهات الفنيّة في الرواية المغربيّة: أدرج ضمنه أنواع الروايات ك: الرواية التّقليديّة ، والرواية الرّومانسيّة ، والرواية الواقعيّة، والرواية الطّليعيّة، و الرواية التّجريبية.
- ¹⁵ محمد عزّام: وعي العالم الروائي - دراسات في الرواية المغربيّة، منشورات اتّحاد الكتاب العرب، دط، دمشق، 1990م، ص 8. ص 11.
- ¹⁶ المرجع نفسه. ص 11.
- ¹⁷ ينظر: المرجع نفسه. ص ص 23 24.
- ¹⁸ المرجع نفسه. ص 39.
- ¹⁹ جمال شحيّد: في البنيويّة التّركيبية -دراسة في منهج لوسيان غولدمان-. دار ابن رشد للطباعة و التّشّير، ط1، بيروت، 1983، ص 130.
- ²⁰ محمد عزّام: وعي العالم الروائي -دراسات في الرواية المغربيّة-، ص 42.
- ²¹ المرجع نفسه. ص 44.
- ²² المرجع نفسه. ص 77.
- ²³ لوسيان غولدمان: المادية الجدلية وتاريخ الأدب. ترجمة: محمد برادة. مؤسسة الأبحاث العربية، ط1، بيروت، 1985، ص 7.
- ²⁴ محمد عزّام: وعي العالم الروائي -دراسات في التقّد الأدبي-. ص 79.
- ²⁵ المرجع نفسه. ص 79.

²⁶ المرجع نفسه. ص 80.

²⁷ المرجع نفسه. ص 169.

²⁸ المرجع نفسه. ص 169.

²⁹ المرجع نفسه. ص 175.

³⁰ المرجع نفسه. ص 176.

³¹ المرجع نفسه. الصفحة نفسها.

³² Georges Luckacs : la signification pressente du réalisme critique, édition Gallimard, Paris, 1960, p 104.

قائمة المراجع

- 1- أنور عبد الحميد الموسى. علم الاجتماع الأدبي منهج سوسولوجي. دار النهضة العربية للطباعة. 2011 بيروت.. ط1.
- 2- بون باسكادي ترجمة محمد سيلا. البنيوية التكوينية ولوسيان غولدمان. مؤسسة الأبحاث العربية. بيروت. 1986. د. ط.
- 3- تيري إيجلتون ترجمة جابر عصفور. الماركسية والنقد الأدبي. دار قرطبة للطباعة والنشر. الدار البيضاء. 1986. ط2.
- 4- جابر عصفور. نظريات معاصرة. الأعمال الفكرية الهيئة المصرية العامة للكتاب. مصر. 1998. د. ط.
- 4- جمال شحيد. في البنيوية التركيبية -دراسة في منهج لوسيان غولدمان-. دار ابن رشد للطباعة والنشر. بيروت. 1983. ط1.
- 6- جمال شحيد. في البنيوية التركيبية -دراسة في منهج لوسيان غولدمان-. دار ابن رشد للطباعة والنشر. 1983. ط1.
- 7- جورج لوكاتش ترجمة نايف بلوز. دراسات في الواقعية. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. بيروت 1985. ط3.
- 8- حميد حميداني. النقد الروائي والإيديولوجيا -من سوسولوجيا الرواية إلى سوسولوجيا التحليل الروائي-. المركز الثقافي العربي. بيروت. 1990. ط1.
- 9- صلاح فضل. نظرية البنائية في النقد الأدبي. منشورات دار الآفاق الجديدة. بيروت 1985.
- 10- عمر عيلان. في مناهج تحليل الخطاب السردى. دار الكتاب الحديث. القاهرة. 2011.
- 11- فريدريك جسون. سجن اللغة -تقويم نقدي للبنيوية والبنيوية الشكلية الروسية-. أمريكا: مطبعة جامعة بنستون الأمريكية. 1972.
- 12- لوسيان ترجمة محمد برادة غولدمان. المادية الجدلية وتاريخ الأدب. مؤسسة الأبحاث العربية. بيروت. 1985. ط1.
- 13- محمد عزّام. وعي العالم الروائي -دراسات في الرواية المغربية-. منشورات اتحاد الكتاب العرب. دمشق. 1990. د. ط.
- 14- collectif, l. g. *le structuralisme génétique*. paris: gonthier collection mediation. 1977
- 15- georges luckacs. *la signification pressente du réalisme critique*. paris: gallimard . 1960